مسيحيون في مكة المكرمة..

الرحلات والاستشراق في الجزيرة العربية

استحقت شبه الجزيرة العربية اهتمام الكثير من الباحثين والرحالة من مختلف أرجاء العالم، وذلك لما تتميز به من خصوصيات عديدة أبرزها وجود الأماكن الإسلامية المقدسة، واحتضانها العديد من كبرى حضارات العالم التاريخية إلى جانب موقعها الفذ الذي جعلها في قلب العالم القديم وبجانب الطرق التجارية البحرية والبرية.

وهناك مغامرون كثيرون راودَتْهم فكرة الوصول إلى مكة المكرَّمة والمدينة المنورة، وبالفعل وصل الكثيرون منهم، بَيْد أن غيرهم رجع بخُفَّي حنين، وأمَّا الذين وصلوا فأكثرهم تعلَّم العربيةَ، وتظاهر بالإسلام تيسيرًا للوصول، وبعضهم أسلم بالفعل وحسن إسلامه، والبعض ترك القرَّاء في حيرة من أمر إسلامه، وأما أسباب هذه المغامرات التي قد تكلف المغامر حياته، فتتدرج تحت أسباب عدَّة، أهمها رُوح المغامَرة التي اتَّصف بها الأوروبيون في القرون المنصرمة لتسجيل أسمائهم في سجل الأوائل، ومنهم من كان عميلاً للاستعمار الذي كان يُحاول أن يدرس جزيرة العرب، ولاسيَّما مكة والمدينة تمهيدًا لاستعمارها، ومنهم من كان يرغب في البحث العلمي والاجتماعي والاطلاع على عادات وتقاليد الشعوب، ومنهم من أراد أن يتحدَّى الآخرين بالولوج إلى الأرض التي حرَّمها الله على المشركين.

وكان مفهوم الترحال من أجل العلم والمعرفة تبلور منذ القرن السادس عشر الميلادي، ويهدف في الأساس إلى جمع المعلومات الجغرافية ودراسة عادات الشعوب وأحوالهم المعيشية والسياسية. وكان الرحالة الغربي يوصف بأنه رجل متحضر، لديه تصورٌ راقٍ للحياة وهو صاحب رسالة حضارية، يريد نشرها في أوساط الشعوب المتخلفة، وقد عكف على التجوال والترحل ليدون مشاهداته السياسية وأخبار المناطق التي يزورها لصالح الحكومات أو المؤسسات التي أوفدته.

وكان أدب الرحلات عند الغربيين يعد امتدادًا لحركة الاستشراق، «وهو جزء من تراث الإمبراطوريات الغربية المستعمرة، التي كانت ولا تزال تحرص على دوام مصالحها في البلاد الأخرى، فحتى الرحلات ذات الطابع العلمي الأكاديمي كانت مرتبطة بالسياسة أكثر من ارتباطها بالعلم والحضارة».

وكان أدب الرحلات «عظيم الفائدة، ولا يضاهى في تنوعه وتعدد مجالاته، على الرغم من الغموض الذي يكتنف دوافعه الحقيقية، حيث يلتقي في هذا المجال العلم بالأدب والفلسفة بالتاريخ والاقتصاد بالسياسة، وتشتمل كتب العلماء ورجال الدين والسياسية والعسكريين والمخبرين الذين زاروا المنطقة، على ركام هائل من المشاهدات والأبحاث الدقيقة، التي تتناول السكان والعمران والنبات والحيوان، وترسم الخرائط ومواقع المدن الأثرية، وتحدد الطرق ومواطن الثروات». ومن أسماء هؤلاء لودفيكو فارتيما، وجوزيف بيتس، ووليام جيفورد بالجريف وتشارلز دوتي وهاري سنت جون فيلبي، بالإضافة إلى باديا يلبليش ونيبور وبركهارت وبيرتون.

وكانت رحلة المستشرق الدكتور كريستيان سنوك هور خرونييه إلى مكة المكرمة بين عامي 1884 و 1885 التي وضع خلالها كتابه الشهير (مكة) والذي يتكون من جزأين، تناول فيهما تصوراته عن حال المسلمين في الجزيرة العربية وجزر الهند الشرقية، التي عاش فيها مستشارًا للشؤون الشرقية والإسلامية لمدة 17 سنة. ومن دوافع سنوك في رحلته إلى الجزيرة العربية، «إذا عرفنا أن العصر الذي عاش فيه، كان عصر حمى التوسع الاستعماري وحمى «التبشير» في ظل حماية السلطة المستعمرة، وحمى الاكتشاف والريادة «وذلك باكتشاف أي مجهول عند الأوروبيين للفوز بالشهرة، كالنقوش والكتابات والآثار والمخطوطات وغيرها». وكانت من أبرز مهام سنوك وضع الخطط والتوصيات اللازمة للقضاء على الحركات المناهضة للنفوذ الهولندي، إذ كانت مكة المكرمة تنطوي على المحرك الرئيسي للثورة ضد الهولنديين في أندونيسيا من خلال الوافدين إلى الحج.

وكذلك من أهم دوافع رحلته التعرف على المؤثرات التي تدفع الأندونيسيين إلى الثورة والعصيان بعد قدوم حجاجهم من مكة المكرمة، وكان هؤلاء يشاركون بنشاط كبير في حركات التمرد على السلطات المستعمرة.

وكان للجانب الإيجابي من رحلة المستشرق الهولندي، إلى طغيان الجانب العلمي على الكثير من الدراسات، التي كتبها في رحلاته، وبالأخص في مجالات الفقه والأصول والحديث، الأمر الذي كان له أثر شامل على الحركة الاستشراقية في أوروبا. وكانت حياته في الشرق مكنته من أن يصير أكثر دقة وروية في أحكامه ومواضيعه، وساعده في ذلك تضلعه في اللغة العربية وبعض اللغات الأندونيسية.

ومن ضمن رحلات المستشرقين الرحالة المستشرق الفرنسي ليون روش الذي زار منطقة الحجاز عام 1842 متنكرًا تحت اسم عربي وزي إسلامي ليؤلف بعد ذلك كتابه عام 1884 الذي أسماه «32 سنة في الإسلام». وكان الهدف الرئيسي لرحلة روش، الحصول على موافقة شرعية من المراجع الدينية للفتوى التي صاغها الفرنسيون ليحتجوا بها ضد مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري في الجزائر، وذلك بعدما تمكن إثر تنقلات متعددة، من حضور مجلس العلماء في الطائف برعاية حاكم مكة المكرمة آنذاك.

وقد تعرض روش في رحلته إلى وصف الحالة السياسية والدينية السائدة في الدولة السعودية آنذاك، كما سجل وصفًا شاملاً للمظاهر البارزة في عدد من المدن والمواقع في منطقة الحجاز، اشتملت على كل من: ينبع البحر، وبدر حنين، والطائف، بجانب مكة المكرمة والمدينة المنورة والمشاعر المقدسة.

ومن الجوانب العلمية والتاريخية التي تتضمنها رحلات الغربيين إلى المنطقة، رحلة الرحالة السويسري بركهارت التي كانت أبرز الرحالة السويسريين إلى المنطقة. كان بركهارت، المعروف بـ«الشيخ إبراهيم بن عبد الله الشامي»، لم يكن الرحالة الأوروبي الأول الذي يزور المدينتين المقدستين في الجزيرة العربية، فإنه أول من كتب وصفًا دقيقًا لهما.

نشأ بركهارت في مدينة بازل (بال، في أقصى شمال غربي سويسرا) وسط عائلة تجارية غنية، عين بعد انتهاء دراساته في ألمانيا وإنجلترا، مندوبًا عن الجمعية البريطانية لتشجيع الاستكشاف في الأجزاء الداخلية لأفريقيا. وانتقل في ما بعد إلى منطقة الشرق الأوسط، فأقام في سورية لبعض الوقت بهدف إتقان اللغة العربية، ثم غادر إلى الأردن، وسجل أحد أهم إنجازاته بإعادة استكشاف البتراء، العاصمة السابقة للأنباط عام 1809 ، إلى جانب إمداد حكومته بالكثير من المعلومات المهمة عن الوضع السياسي المحلي في المنطقة.

ألف بركهات كتابين (الرحلات في الجزيرة العربية) 1822 و(ملاحظات عن البدو السعوديين) 1829، تضمنا وصفًا دقيقًا ليس لأسلوب حياة البدو والتطور السياسي للجزيرة العربية فحسب، بل أيضًا معلومات تفصيلية عن كل ما تحتوي عليه المدينتان المقدستان وتصويرًا شاملاً للوضع الداخلي والخارجي للكعبة المشرفة.

ويؤكد الدكتور ديونيسيوس أ. اجيوس الأستاذ بقسم دراسات الشرق الأوسط في جامعة ليدز، أن سيطرة مدينتي جدة وعدن على مفاتيح التجارة في البحر الأحمر خلال القرن السادس عشر، شجع المستكشفين البرتغاليين على الاستيلاء على هاتين المدينتين والقضاء على الحركة التجارية من شرق أفريقيا والهند والصين.

وكان الهدف الرئيسي وراء الحملات الاستكشافية للبرتغاليين الذين كانوا يتنافسون مع المماليك في مصر على السيطرة على طرق القوافل الشرقية، ومع البنادقة الإيطاليين (من مدينة البندقية) في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط. ومن خلال الرحلات الاستكشافية للبرتغاليين في مدن البحر الأحمر، أمكن التعرف على الخبرات الإسلامية الكبيرة والدراية بالتيارات والشعوب والموانئ البحرية. وساهمت كتابات الرحالة في رفع مستويات المهارات الملاحية بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، بعدما كانت المصادر العربية صامتة عن شرح هذه المهارات، ولم يكن معلومًا حينها أن الملاحين المسلمين متمرسون في التقنية الملاحية باستخدام البوصلة والخرائط.

ومن ضمن الرحلات إلى الجزيرة العربية رحلة الأميرال الفونسو دي البوكرك البرتغالي الذي أبحر إلى البحر الأحمر وخطط لاحتلال المدينة المنورة للاستيلاء على تابوت النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) والمطالبة بفديته معلنًا أن ثمنه هو كنيسة بيت المقدس لكنه فشل في مساعيه.

وهناك أيضًا رحلة غريغور داكودرا البرتغالي عام 1516، وارتشيبالد فوردر البريطاني الذي جاء إلى شبه الجزيرة العربية ودعا الناس بكل صراحة إلى المسيحية، وحاول أن يبيعهم نسخًا من الإنجيل. لكن كان الجانب الاقتصادي هو أحد جناحي الهدف الاستعماري مع الجانب السياسي، إذ تميز القرن السابع عشر بالصراع بين البرتغاليين وبين شركتي الهند الهولندية والبريطانية، وأخذت كل من الشركتين تسعى لإقامة علاقات تجارية مع حكام اليمن والجنوب العربي. وقد استطاع بعض التجار الأوروبيين إنشاء مراكز تجارية مختلفة على بعض السواحل اليمنية والخليجية خصوصًا بعد أن عرف الأوروبيون مشروب القهوة.

فقام جودريان ببعثة إلى صنعاء مثلاً، وكذلك القبطان الهولندي بيتر فان دي بروك، وهنري ميدلتون وغيره، وكلهم كتبوا وسجلوا ملاحظاتهم وما شاهدوه في الجزيرة العربية واليمن.

وكانت أهداف الرحالة جميعًا لم تخرج عن رصد أوضاع الجزيرة العربية السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية، لذا نجد أول من زار الأراضي المقدسة، وأعطى تقريرًا عن رحلته ومشاهداته هو الأسباني باديا لبلي الذي تنكر تحت اسم علي بك العباسي، وحتى روسيا

جيمس زودغ بور كهارت

الليدي آن بلنت

جون لويس بوركهارت

كانت لها أطماع في المنطقة، إذ أرسل القيصر الروسي، أولريخ جاسبر سيتزن، الذي قام برحلته إلى الجزيرة العربية، واستطاع أن يدخل مكة ليحصل على لقب حاج، وبعدها ذهب إلى اليمن وقتل هناك عام 1811.

وتستمر الرحلات مثل رحلة السير ريتشارد برتون عام 1853 الذي كلف بدراسة المنطقة الواقعة بين مسقط وبلاد الحجاز، وجيرالد ليتشمان عام 1909، وجون فيلبي الذي أسلم، وسماه الملك عبد العزيز آل سعود باسم عبد الله.

وهناك دواتي تشارلز الذي التحق بقافلة الحجاج عام 1876 ويُعدُّ كتابه (رحلات إلى الصحراء العربية) من أفضل كتب أدب الرحلات لما تضمنه من مواد علمية مهمة، والليدي آن بلنت الإنكليزية وزوجها ويلفرد بلنت في رحلتهما إلى الجزيرة العربية للبحث عن الخيول العربية الأصيلة وقد سجلت مشاهداتها في كتاب بعنوان (الحج إلى نجد مهد العنصر العربي) 1881 والإيطالي كارلو غوارماني الذي ركز دراسته على شراء الخيول العربية، ونشر كتابًا بعنوان (شمال نجد رحلة من القدس إلى عنيزة في القصيم) (1866). وجوليوس أوتنغ الألماني الذي قام برحلته إلى الجزيرة العربية عام 1883، وحصل خلالها على آلاف النقوش الآرامية والنبطية واللحيانية ونشرها.

كانت لهؤلاء الرحالة إسهامات في التعريف بتاريخ الجزيرة العربية على الرغم من أن أكثرهم جاء لغايات سياسية بحتة، ولا شك في أن القيمة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لتلك الرحلات لا تقدر بثمن، لأنها تؤرخ لحقبة زمنية اكتنفها الغموض، كما أن الأعمال التي قاموا بها وصبرهم على مناخ الجزيرة العربية، إضافة إلى فقدان الدولة الأمن والأمان كانت سببًا في فقدان بعضهم حياته، كل ذلك يجعلنا نحترم الجهود بصرف النظر عن تلك الأهداف التي جاؤوا من أجلها.

ويقول د. عبدالله إبراهيم العسكر في محاضرة في نادي الطائف الأدبي في 1423 هـ ونشر موجزًا لها في جريدة الرياض: إن الناظر فيما كتبه الرحالة الغربيون عن الحجاز، يجد كمًّا هائلاً من المعلومات الثرية، والملحوظات الجيدة، والتحليل العميق لشؤون المعاش والحياة. والحق أن نتائج تلك الرحلات قد أثرت في الفكر العلمي حول تلك البلاد. وليس من المبالغة في شيء القول إن ما كُتب عن الحجاز، والأماكن الدينية فيه، يُعد من أكثر مما كتب عن أي جزء على وجه الأرض. بل إن ما كُتب عن مكة المكرمة والمدينة المنورة في كافة المجالات يربو مئات المرات على ما كُتب عن المدن الأخرى في الجزيرة العربية برمتها.

استغرقت عمليات سفر الغربيين وترحالهم في جزيرة العرب قرابة أربعة قرون. بدأت من نهاية القرن التاسع الهجري – الخامس عشر الميلادي، وانتهت في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري – العشرين الميلادي. أما ما بعد ذلك من رحلات فإنها تدخل في باب العمل الرسمي، إذ تحدها قيود ومواثيق واتفاقيات رسمية لا تدخل في باب الرحلات. مثل البعثة الاستكشافية العلمية بقيادة كونزاك ريكمانز المتخصص في اللغات السامية، التي قصدت وسط جنوب الجزيرة العربية عام 1371هـ – 1951م بدعم حكومة المملكة العربية السعودية وموافقتها. ضمنت البعثة إلى جانب كونزاك ريكمانز كلاً من: جاك ريكمانز المتخصص في التاريخ الحميري والسبئي، والحاج عبدالله فيلبي المؤرخ والسياسي المعروف، وفيليب ليبنز الخبير في تخطيط الرسوم وتصوير النقوش القديمة.

أو مثل اللجنة العلمية التي أسندت لها حكومة المملكة العربية السعودية إعداد دراسة شاملة عن مدينة الطائف، من أجل تنميتها وتطويرها. فقام ثلاثة علماء في تخصصات مختلفة بإعداد تلك الدراسة، ونشرت في كتاب عام 1413هـ – 1992م. والثلاثة هم: هاينز غاويه، ومحمد شرابي، وغونتر شقايترز.

تتميز رحلات الغربيين إلى بلاد الجزيرة العربية ومدنها في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين – السادس عشر والسابع عشر الميلاديين بكونها ذات طابع فردي، ويكتنف أهدافها الغموض، وكانت في مجملها تتصف بالخطورة، ولكن نتائجها لا تخلو من الفائدة العلمية.

أما رحلات الغربيين في القرون اللاحقة فهي رحلات ذات طابع ديني/ تبشيري، أو ذات طابع عسكري، أو ذات سمة سياسية رسمية، أو جاءت لأغراض علمية واستكشافية. وفي العموم نظر الرحالة الغربيون إلى الأماكن التي زاروها من منظورهم الخاص، لذا أوردوا بعض الملحوظات التي قلما أثارت انتباه الرحالة العرب الذين زاروا الأماكن نفسها.

ولو بحثنا في سبب شغف الغربيين ببلادنا لوجدناه باختصار شديد يتلخص في كون القرن العاشر الهجري – السادس عشر الميلادي قد شهد اندفاع البرتغاليين بأساطيلهم إلى بحار العالم، ومنه طبعًا البحار المحيطة بالجزيرة العربية، مما أدى إلى نوع من المغامرة والصراع بين الدول الأوروبية. وكانت الدول الأوروبية في صراع سياسي واقتصادي وتجاري مع الدولة العثمانية التي تمثل المسلمين، فرغب بعض ساسة أوروبا ومثقفيها معرفة المزيد عن بلاد الحجاز، الذي يُشكل واسطة العقد في الفكر الديني لدى الدولة العثمانية.

كل هذا دفع الدول الأوروبية إلى إقامة علاقات سياسية

تشارلز مونتاج داوتي

كرستين نيبور

الحاج عبدالله فيلبي

مع بعض الدول الإسلامية، ثم تم تأسيس شركات تجارية غربية في سوريا ومصر، وأصبح لبريطانيا، على سبيل المثال، جالية ذات أهمية في حلب. وفي عام 1042هـ/ 1632م أنشئ كرسي اللغة العربية في جامعة كمبردج Cambridge، وبعد ذلك التاريخ بعشرين سنة طبع الكتاب المقدس بعهديه باللغة العربية. وفي مطلع القرن الثاني عشر الهجري – الثامن عشر الميلادي تُرجم القرآن الكريم لأول مرة إلى اللغة الإنجليزية، وكذلك ثم الشيء نفسه لبعض الكتب الأدبية العربية مثل (ألف ليلة وليلة)، وتبادلت أوروبا وبعض دول المشرق السفراء منذ عام 1080هـ – 1669م، ومنذ ذلك الوقت أصبح الشرق والدول العربية على الخصوص محط أنظار دول الغرب وشعوبه.

والتطور المثير هو كون السفر من أوروبا إلى الهند، تاج المستعمرات البريطانية فيما بعد، أصبح ميسورًا عبر البلاد العربية، كما أن للدعوة السلفية التي ظهرت في نجد أهمية كبيرة، وخصوصًا ما ترتب عليها من نتائج سياسية بالغة الخطورة. ثم اندفاع نابليون بونابرت نحو الشرق وحملته على مصر عام 1213هـ – 1798م، كل هذا استقطب اهتمام الغربيين بالمنطقة.. وما عاد القرن الثالث عشر الهجري – التاسع عشر الميلادي يحط رحاله حتى أصبح السفر والترحال للبلاد العربية، ومنها جزيرة العرب، من الأمور المطلوبة للسياسة، والجاسوسية، والتبشير والسياحة.

لهذا نستطيع أن نُجمل أهداف الرحالة الغربيين إلى جزيرة العرب ومنها الحجاز فيما يلي:

1 – الهدف الديني: لا ريب أن حركة الاستشراق وحركة الكشوف الجغرافية خرجت أول ما خرجت تحت نظر الكنيسة وسمعها. وكان الهدف الديني وراء إنشاء أقسام اللغة العربية وكراسيها في جامعات أوروبا. لهذا كان مُعظم من دخل مكة المكرمة أو المدينة المنورة إنما دخلهما لأغراض دينية، منها وضع مقارنة بين النصرانية والإسلام، كما فعل لودفيكو دي فارثيما Ludvico di Varthema الذي ألف كتابًا عنوانه (اتيناريو ltinario) ونشره عام 916هـ – 1510هـ. وكانت انتصارات البرتغاليين واكتشافهم رأس الرجاء الصالح عام 904هـ – 1498م دافعًا جعلهم يحاولون مهاجمة ديار الإسلام، مثل ما حاول أحد أمرائهم وهو الأميرال الفونسو دي البوكيرك Albuquerque المتوفى عام 921هـ – 1515م الذي أبحر إلى البحر الأحمر من أجل أن يحتل المدينة المنورة. ويستولي على خزائن القبر النبوي.

2 – الهدف السياسي: كانت الدولة العثمانية تمثل تهديدًا لدول أوروبا، وكنائس أوروبا، ولكن ذلك التهديد زال في القرن الثاني عشر الهجري – الثامن عشر الميلادي، ومع هذا رأت تلك الدول إن من صالحها دراسة وضع البلاد العربية، التي تخضع للعثمانيين. خصوصًا منطقة مهد الإسلام، فتقاطر الرحالة الجواسيس إلى الحجاز، وكتبوا تقارير عن أوضاع البلاد والعباد، كما فعل الرحالة الأسباني دومينجو باديا لبليخ Domingo Badia Y. Lebich. الذي كان يعمل لصالح نابليون، وأصبحت رحلات الغربيين بمثابة توظيف قدراتهم لخدمة السياسة الغربية ضد الدولة العثمانية.

3 – الهدف الاقتصادي: تميز القرن الحادي عشر الهجري – السابع عشر الميلادي بالصراع بين البرتغاليين من جهة والبريطانيين وحلفائهم من جهة أخرى، فأخذت كل جهة تُقيم علاقات مع بلدان المشرق العربي، وهي البلاد التي تنتج البن، أو يمر عبر أراضيها إلى أوروبا. ثم عمدت تلك الدول إلى إرسال الرحالة لأغراض تجارية، ولإعداد تقارير عن الوضع الاقتصادي، وحالة الموانئ العربية على البحر الأحمر.

4 – الهدف العلمي: لا يشك أحد أن نهضة أوروبا على العلم، وبعض العلم مصدره من الشرق ومن العرب على وجه الخصوص. وكانت تدور في أذهان الأوروبيين فكرة البحث والتقصي لأجل العلم، لذا أرسلوا الرحالة يجوبون أقطار الجزيرة العربية من أجل هذا الهدف. ومن يتفحص كتابات بعض الرحالة أمثال: العالم الدنماركي كرستين نيبور Carsten Neibuhr أو تشارلز مونتاج داوتي Charles Montage Doughty يدرك على الفور مقدار الجهد الذي بُذل من أجل العلم والمعرفة.

ولابد في هذا السياق من الإشارة إلى جهل الرحالة الغربيين الأوائل ببلدان الجزيرة العربية، وهم في بعض هذا معذورون، ذلك أن أعمال الجغرافيين والرحالة المسلمين لم تترجم إلى اللغة اللاتينية، وهي لغة العلم والثقافة في أوروبا، إلاّ في القرن الثالث عشر الهجري – التاسع عشر الميلادي، وبهذا لم يتمكن الرحالة الغربيون الذين زاروا الجزيرة العربية قبل ذلك التاريخ من الاطلاع على ما كُتب عن الجزيرة العربية.

مُعظم الرحالة الغربيين الذين زاروا مدن الحجاز، وخاصة الساحلية منها، أو المدن المقدسة فيها، يتفقون مع قول شهير قاله لورنس يصف مناخ جدة: «إن جدة لم تشهد هبوب النسيم منذ سنين» ومع هذا كان لورنس T.Lawrence وغيره معجبًا بفن العمارة الحجازية، وشبهها بالطراز الإليزابيثي. لقد حاول الرحالة الغربيون التغلب على مشكلة الحر في جدة وغيرها من مدن الحجاز، فعمد مثلاً الصحفي الشهير جيمس باكنجهام James Silk Buckingham إلى اصطحاب شبكة يلتف بها ويغمس نفسه في الماء كلما شعر بوطأة الحر.

الحجاز في كتب الرحالة والمستشرقين

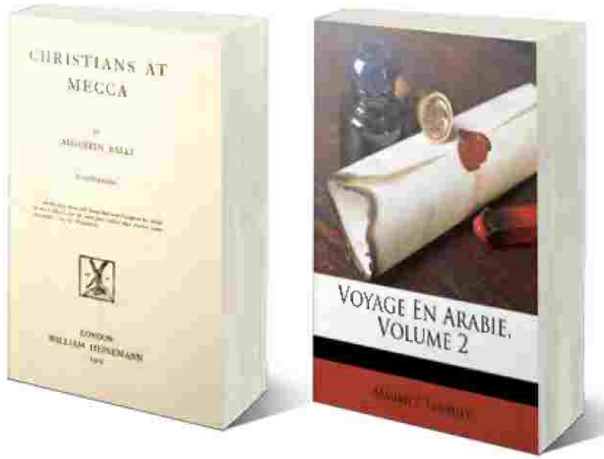

مع رحلات الرحالة والمستشرقين الغربيين إلى الجزيرة العربية وخاصة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة خلال أوقات الحج، يأتون تحت أسماء عربية مستعارة مخفين مسيحيتهم، ويظهرون أنهم مسلمون، ويقومون بتدوين ما يشاهدونه ثم ينشر في كتب حين عودتهم إلى ديارهم.

وقد رصد الدكتور عبد الله العسكر جزءًا من انطباعاتهم بعد زيارة المدينة المقدسة في كتيبهم. يحتوي كتاب أوغست رالي A.Ralli الموسوم: (المسيحيون في مكة Christains at Mecca) على عرض شيق لانطباعات رحالة أوروبيين زاروا هذه المدينة المقدسة بدءًا من سنة 909هـ/1503م وانتهاء بسنة 1312هـ/1894م. ومثله كتاب البرخت زيمة الموسوم (شبه الجزيرة العربية في كتابات الرحالة الغربيين في مئة عام: 1770– 1870م) الذي يحوي مختصرًا لبعض الرحالة الذين زاروا الحجاز، وكتبوا عن مدنه. ومما ذكره المؤلف إشارة مقتضبة عن زيارة الكابتن فيلشتيدت مدينة جدة عام 1247هـ/1831م.

وفيما يلي عرض سريع لأهم الرحلات إلى الحجاز مرتبة حسب تاريخ وقوعها:

لا نستطيع أن نقرر على وجه الدقة تاريخ بداية وصول الرحالة الغربيين إلى بلاد الحجاز، وهناك على كل حال احتمال أن بعض البحارة الأوروبيين، وعلى وجه الخصوص البرتغاليين، قد وصلوا إلى ساحل البحار التي تحيط بالجزيرة العربية. هناك إشارات مقتضبة في أدبيات الرحلات الغربية إلى الجزيرة العربية لأن القبطان والرحالة كابوت john Cabot، الذي يقال إنه زار مكة المكرمة بين سنتي 881 – 896هـ/ 1476 – 1490م، وربما طاف سواحل البحر الأحمر الشرقية، ويُنسب إليه اعتقاده أن جزيرة العرب غير معروفة، لذا أطلق عليها اسم (الأرض الجديدة Newfoundland) وأعلن عن ضمها لممتلكات الملك هنري السابع. وكذلك البحار البرتغالي جريجوري كوادرا Gregeory da Quadra الذي صحب حجاج زبيد باليمن إلى مكة المكرمة في حوالي عام 906هـ/1500م وفي المدينة المنورة أصابت جريجوري لوثة مشوبة بعاطفة دينية، فأخذ يصيح بأعلى صوته شاتمًا النبي صلى الله عليه وسلم.

ويُعد في طليعة الرحّالة الغربيين الذين زاروا الحجاز الرّحالة الإيطالي لودفيكو دي فارثيما Ludvico di Varthema. 861 – 932 هـ/ 1456 – 1517م الذي تسمى بالحاج يونس، ورافق قافلة من حجاج الشام في سنة 909هـ/1503م، ومكث في مكة المكرمة عدة أسابيع ووصفها. وقال: إنها تضم 6000 أسرة، وتحدث عن شح المياه فيها، وشبه المسجد الحرام بالكوليزيوم Colloseum في روما، ووصف مناسك الحج والتطهر بماء زمزم، وتحدث عن المدينة المنورة وجدة، ووصف الحياة المعيشية فيهما، وأورد حكايات طريفة. وقدر عدد أسر جدة بخمس مئة أسرة. ونشر عن رحلته كتابه إيتيناريو Itinario باللغة الإيطالية عام 1510م، ولقي كتابه بعد نشره رواجًا كبيرًا، وتُرجم إلى عدة لغات أوروبية. ونقل الدكتور عبدالرحمن الشيخ رحلة فاثيما، ونشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب ضمن سلسلة الألف كتاب عام 1994م.

ومن الأخبار غير الموثقة عن مكة المكرمة، ما كتبه فنسنت لو بلان Vincent Le Blanc، وهو فرنسي من مدينة مرسيليا، في كتابه الموسوم (مسح عام للعالم). والكتاب عبارة عن رحلات وصفية يدعي صاحبها أنه زار مُعظم العالم المعروف في زمنه. ويقول: إنه شاهد الثيران تسحب الماء من بئر زمزم داخل المسجد الحرام.

وفي عام 1012هـ/1604م زار أول رحالة ألماني الحجاز وهو جون وايلد Johann Wild. وقد كان ممن أسر ثم بيع في سوق النخاسة في استانبول إلى تاجر من مصر، فأخذه التاجر معه إلى القاهرة حيث بيع للمرة الثانية لتاجر من فارس، الذي أخذه معه لأداء فريضة الحج. يقول جون وايلد: إن الحجاج الذين رافقهم عانوا في الطريق معاناة كبيرة، ومات منهم عدد عظيم، ونفق من الجمال أعداد

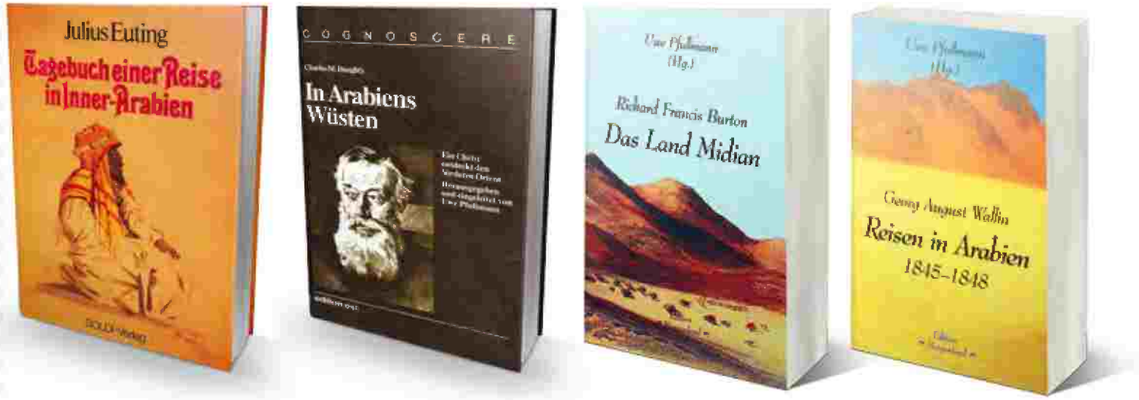

لا تحصى. وصف وايلد مناسك الحج من دخول الحجاج مكة المكرمة حتى زيارتهم للمدينة المنورة. وهو قدّر عدد حجاج مصر، وسورية واليمن بأربعين ألف حاج.

وفي عام 1643م زار مكة المكرمة ماثيو دي كاسترو Matheo de Castro وهو مطران كاثوليكي من أصول هندية. وظل سبب رحلته، وكيفية وصوله إلى مكة المكرمة. وتقريره الذي كتبه أسرارًا لم يعرفها أحد حتى يومنا هذا.

وفي سنة 1097هـ/1685م وصل إلى الحجاز جورج بيتس George Pitts، وهو بريطاني الأصل. وكان في بداية رحلته من أوروبا تعرض للأسر في البحر الأبيض المتوسط، وبيع لأحد المواطنين في الجزائر. وقد انتقل بيتس من سيد إلى آخر، فصحبه سيده الأخير إلى مكة المكرمة. وصف بيتس المسلمين ولباسهم وتدينهم كما شاهدهم في مكة المكرمة وفي عرفات. وزار بيتس مع سيده المدينة المنورة. وقد دون ذكرياته عن بلاد الحجاز في كتاب بعد أربعين سنة من وقوع الرحلة.

ولعل العالم الدنماركي كرستين نيبور Carsten Neibuhr الذي وصل إلى جدة في نهاية سنة 1176هـ/1762م مع فريق علمي كلفه إمبراطور الدانمارك فردريك الخامس بدراسة الحياة الاقتصادية والاجتماعية والبيئية والجغرافية للحجاز. أقول لعل نيبور من أشهر الرحالة الجادين، وتُعد كتاباته عن بلاد الحجاز رائدة في مجال الاستكشافات العلمية. وكان نيبور دقيقًا في ملحوظاته، كما هو الشأن في كل كتاباته. سجل نيبور معلومات كثيرة من مدوناته ومدونات زملائه في الفريق العلمي. جاءت مكتشفاتهم وملحوظاتهم عن جزيرة العرب في مجلدين كبيرين. ونيبور أول من نقل خبر الدعوة السلفية إلى أوروبا، وهو أول من سماها بالوهابية. وقد قال عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب أخبارًا لا تصح، مثل قوله: إن الشيخ محمد سافر إلى فارس لطلب العلم، وهو قول نشاز لا دليل عليه. مكث نيبور في جدة ستة أشهر على أمل أن يزور مكة المكرمة ووسط الجزيرة العربية.

وفي ظني أن رحلة دومينجو باديا لبليخ Domingo Badia Y Leyblich من أجمل الرحلات وأمتعها. جاء لبليخ إلى الحجاز متظاهرًا بالإسلام، وسمى نفسه علي بك العباسي، وادعى أنه من سلالة بني العباس. يرجع أصل لبليخ إلى مدينة بلنسية الإسبانية. ولاشك أنه كان يعمل لصالح نابليون إمبراطور فرنسا. وصل لبليخ مكة المكرمة عام 1222هـ/1807م. كانت كتابات لبليخ مفعمة بالحيوية. وهو أول من نقل للغرب فكرة منظمة وصحيحة عن مناسك الحج، وعن مكة المكرمة، بل هو أول من حدد موقع مكة المكرمة تحديدًا دقيقًا مستعينًا بأجهزة رصد فلكية. كما أنه الأوروبي الوحيد الذي تمكن من دخول جوف الكعبة، حيث شارك شريف مكة المكرمة الشريف غالب في غسل الكعبة.

يغلب على تقاريره عن الحجاز النزعة الروحية. ومن المهم الإشارة إلى أن لبليخ كان شاهد عيان على تقدّم القوات السعودية إلى مكة المكرمة. وتسنى له مشاهدة الجيش السعودي وقائده الإمام سعود بن عبدالعزيز (1218 – 1229هـ/ 1803 – 1814م)، فوصفه ووصف حجاج نجد، ولاحظ حماسهم الديني، وبساطتهم. وقدّر عددهم بخمسة وأربعين ألفًا، وكان مأخوذًا بحسن أجسامهم، وعيونهم وأنوفهم المستقيمة. ولأن لبليخ يعمل لصالح فرنسا فقد دست له المخابرات البريطانية السم فمات سنة 1233هـ/1818م.

وفي عام 1224هـ/1809م زار مكة المكرمة أولريخ جاسبر سيتزن Ulrich Jasper Ceetzen، وهو من إحدى الإمارات الألمانية التي كانت تابعة لقيصر روسيا، ومن المتخصصين في اللغويات، وهو موسوعي الثقافة. كانت رحلته بدعم من قيصر روسيا. وكان يهدف من زيارة مكة أن يحمل لقب حاج، ليستفيد منه في مهماته القادمة في آسيا وأفريقيا لصالح المخابرات الروسية. وقد تمكن سيتزن من الحصول على اللقب، بعد مشاق عسيرة، منها خضوعه لامتحان في المسائل الدينية. وهكذا بعد انقضاء موسم الحج، غادر سيتزن الحجاز إلى اليمن.

زار الرحالة السويسري جون لويس بوركهارت Gohann Ludwing Burckhart مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف وجدة وينبع، وتجول فيها مدة من الزمن تبلغ عشرة أشهر، من منتصف سنة 1230هـ/ 1814م إلى الربع الأول من سنة 1231هـ/1815م، وسجل كل ما شاهده، وكل ما عنّ له عن تلك البلاد وأهلها، وأنماط حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية. لبوركهارت أربعة كتب هي: (1) رحلات في بلاد الشام (2) رحلات في بلاد النوبة (3) ملاحظات على البدو الوهابيين (4) رحلات في شبه الجزيرة العربية. عرّب الدكتور عبدالله العثيمين الكتاب الثالث. أما الكتاب الرابع فنقله إلى العربية الدكتوران: عبدالعزيز الهلابي وعبدالرحمن الشيخ.

وصل بوركهارت جدة تحت اسم مستعار هو إبراهيم ابن عبدالله الشامي ضمن قافلة من الحجاج النوبيين. يقول الكولونيل ليك Leake عن بوركهارت ومؤلفاته: «لقد قدم بوركهارت للجمعية الأفريقية في لندن أدق المعلومات عن الحجاز، خاصة عن مكة والمدينة، على نحو لم يصل أبدًا إلى أوروبا قبل ذلك. لقد مكنته معرفته باللغة العربية وعادات المسلمين من الظهور بشخصية مسلم بنجاح كبير. لقد أقام في مكة طيلة موسم الحج وقام بأداء مناسك الحج دون أن يثير أدنى شك حول حقيقة شخصيته».. قابل بوركهارت محمد علي باشا في الطائف، حيث كانت الجيوش المصرية تحارب، في جبهات عدة، جيوش الدولة السعودية الأولى. ودوّن بوركهارت بشكل دقيق ملحوظاته عن الدعوة السلفية وأتباعها. قدّر بوركهارت الواقفين في صعيد عرفات بسبعين ألف حاج، يتكلمون أكثر من أربعين لغة.

زار جدة المغامر الألماني إدوارد رابيل Edward Ruppel عام 1247هـ/1831م، وهو يُعد من المستكشفين العظام الذين قدموا للعلم التاريخي الشيء الكثير، وذلك من خلال استكشافه للآثار في مصر وبلاد النوبة، والشام، والساحل الشرقي للبحر الأحمر، وسيناء وأثيوبيا، وكوردفان. وبعد عودته من رحلاته المتعددة، أمضى بقية حياته في مدينة فرانكفورت، وعكف على نشر مذكراته وأبحاثه التاريخية والآثارية والنباتية والحيوانية.

يُعد توماس كيث Thomas Kieth أحد المغامرين

والمرتزقة الذين شاركوا الحملة المصرية العثمانية معاركها في الحجاز. وكان توماس كيث يشغل رتبة ضابط في الفرقة الاسكتلندية، وهو من بقايا حملة نابليون على مصر. وكان توماس كيث خبيرًا في إدارة المعارك، ويتصف بالذكاء وحسن التدبير، لهذا عينه طوسون باشا عام 1231هـ/1815م واليًا على المدينة المنورة، عندما غادرها على رأس الجيش إلى نجد. وبهذا التعيين يكون توماس كيث أول أجنبي غير مسلم يتولى إمارة المدينة. ويُقال: إن كيث خلّف بعد وفاته مذكرات عن الحجاز، ولا يعرف أحد عنها شيئًا، وما وصلنا عنها قليل، ومنها يتضح مدى الشك في معلوماته.

ويضيف الدكتور العسكر، ومن أشهر الرحالة الخبير الفرنسي موريس تاميزية Maurice Tamisier الذي وصل الحجاز عام 1250هـ/1834م، وقد جاء مع الحملة المصرية كأمين سر ومساعد للطبيب شيرفو. وكان تاميزية يتصف بالذكاء ودقة الملاحظة، وقد كتب عن رحلته هذه كتابًا عنوانه: (رحلة إلى بلاد العرب Voyage en Arabie).

وتكمن أهمية رحلة تاميزية كون صاحبها سجل بشكل متسق وشمولي أحداث حملة محمد علي على الحجاز وعسير، وتحدث عن قضايا داخلية كثيرة. منها على سبيل المثال: وصف مدينة الطائف، التي قال عنها: إنها مدينة محزنة بسبب الدمار الذي أصابها، وذلك بسبب انتشار وباء الطاعون فيها، وهو داء قضى على عدد كبير من السكان، وكان تاميزية يكن إعجابًا شديدًا للرقعة الخضراء التي تُغطي معظم نواحي الطائف. وفي كتابه حديث شيق عن بيشة وأبي عريش، ثم حديث طويل وممتع عن عسير وتاريخها وصراعها مع محمد علي. وقد عرّب الدكتور محمد آل زلفة كتاب تاميزية عن نص إنجليزي مترجم، ونشرهما في جزأين: الأول تحت عنوان (رحلة في بلاد العرب: الحملة المصرية على عسير 1249هـ/1934م) الرياض 1414هـ. والثاني تحت عنوان: (رحلة في بلاد العرب: الحجاز) الرياض 1421هـ.

ومن أغرب الشخصيات الغربية الذين زاروا مكة المكرمة شخصية الفرنسي ليون روش Leon Roches، الذي قضى ردحًا من الزمن مستشارًا للأمير الجزائري عبدالقادر، ثم تظاهر بالإسلام، وقرر مغادرة الجزائر بعد قصة حب فاشلة، وبعد نشوب معركة بين الجزائريين والجيش الفرنسي، لا يستطيع معها حمل السلاح ضد مواطنيه. وصل ليون روش مكة المكرمة في نهاية عام 1257هـ/1841م في زي حاج مسلم، وتسمى باسم عمر ابن عبدالله، ثم زار المدينة المنورة، وأعجب بالمسجد النبوي وفوانيسه، والكتابات المذهبة على الجدران. ثم عاد إلى مكة المكرمة، وبقي فيها أسبوعين، غادر بعد ذلك إلى الطائف لمقابلة الشريف، الذي أكرم مثواه على أساس أنه عميل سياسي لفرنسا لا أكثر، وبحلول موسم الحج ذهب إلى مكة المكرمة. وكانت تراوده فكرة التحول إلى الإسلام، لكنه بقي على دينه حتى وفاته.

وفي جبل عرفات تعرف عليه بعض الجزائريين فصاحوا: (النصراني.. النصراني) وشعر أن نهايته قد اقتربت، وإذا ببعض الجنود يقبضون عليه، ويقيدونه، ثم يضعونه على ظهر جمل، وعرف أخيرًا أن أولئك الجنود، هم من حرس الشريف، الذي بعثهم لتخليصه، ووضعه في أول سفينة ترسو في ميناء جدة. كتب روش مذكراته بعنوان: (اثنان وثلاثون عامًا في الإسلام) وصدرت في جزأين، ويهمنا الجزء الثاني الذي خصصه للحديث عن مهمته في الحجاز، وقد ادعى روش أنه ثالث نصراني يدخل مكة المكرمة بعد الأسباني دومينجو باديا لبليخ Domingo Badia Y Lebich المعروف باسم علي بك العباسي سنة 1222هـ/1807م، والإنجليزي جون لويس بوركهارت Gohann Ludwig Burckhart 1229هـ/1814م.

ويأتي إلى الحجاز ملازم في الجيش الهندي ولكنه من إيرلندا هو ريتشارد بيرتون Richard Burton عام 1270هـ/1853م متنكرًا في صورة حاج من الهند. كانت رحلة بيرتون إلى الديار المقدسة مدعومة من قبل الجمعية الجغرافية البريطانية، لغرض تقديم تقرير عن أحوال الحجاز والمنطقة الواقعة بينه وبين مسقط من كافة الوجوه. وكان الحجاز آنذاك يقع تحت سيطرة الدولة العثمانية. وكانت بريطانيا ترغب في معرفة المزيد عن الأماكن المقدسة لتستخدمها في صراعها السياسي والاقتصادي مع الدول العثمانية. ولكن لسوء الحظ أو لحسنه، فإن التقارير التي كتبها بيرتون، وشكلت كتابًا كبيرًا، لم تكن ذات نفع كبير لحكومة بريطانيا، لأنها تقارير مشوشة وغير دقيقة من الناحية السياسية.

ومع هذا فقد ربحت أدبيات الرحلة الأوروبية سفرًا جميلاً ونفعًا كبيرًا. فقد استطاع بيرتون أن يكتشف بحيرة تنجانيقا. وترجم ألف ليلة وليلة إلى الإنجليزية، بل ترجم ثلاثين كتابًا من العربية والفارسية، ذلك أنه يتقن خمسًا وعشرين لغة. وكان بيرتون متيمًا بالشرق، وكان يرى أن تقوم الدول الأوروبية بنقل نظم وتراث الشرق. وكان يعتقد أن استيراد الشرق لنظم غربية أمر مضحك، وهو تنبأ أن جهود الدولة العثمانية في الإصلاح بإصدار مجموعات قوانين وتنظيمات مستوحاة من الغرب، وهي المعروفة (بخط كلخانة) أنها لن تؤتي ثمارها المرجوة.

وصف بيرتون المدينة المنورة، وعادات السكان، والحرم النبوي، وكان يستعين بآيات من القرآن الكريم، والحديث الشريف. ثم عرج على مكة ووصفها، ووصف مناسك الحج، وكان في وصفه لتلك المناسك يصدر عن احترام للإسلام وعن تدين. وقد ذكر بيرتون الدعوة السلفية وقال: إن رجالها يتطلعون إلى أوروبا للتحالف معهم من أجل السيطرة على الحجاز. ولا نعلم مصدره في هذه المعلومة، ولكنه يتمتع ببعد نظر، ولهذا فقد صحت توقعاته، فقد تحالف أشراف الحجاز فيما بعد مع بريطانيا ضد الدولة العثمانية. ونقل الدكتور عبدالرحمن الشيخ رحلة بيرتون الممتعة إلى العربية بعنوان (رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز) ونشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ضمن سلسلة الألف كتاب عام 1994م في ثلاثة أجزاء.

وفي عام 1271هـ/1854م، وصل إلى الحجاز شارل ديدييه Charles Didier وأقام في جدة مدة، ثم غادرها إلى الطائف لمقابلة الشريف عبدالمطلب بن غالب الذي كان يقضي إجازته في قصره بالطائف. جاء ديدييه مبعوثًا سريًا من الحكومة الفرنسية لمعرفة مدى صلابة الوجود العثماني في الحجاز، لذلك نراه يجتمع ويلتقي بأكبر رجالات الحكومة في الحجاز، وبالتجار وبعض المبعوثين الأوروبيين، وخاصة القنصل البريطاني. كانت حصيلة الرحلة كتابًا كبيرًا عنونه صاحبه (إقامة في رحاب شريف مكة) وفي الكتاب وصفٌ جغرافيّ وبشريّ لكل من جدة والطائف، وحديثًا عن الجغرافية الاجتماعية لهما. وفي الكتاب أيضًا حديث عن الحياة الاقتصادية في الطائف. وملاحظات عن السكان. وقام الدكتور محمد خير البقاعي بترجمة الرحلة بعنوان (رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي)، ونشرتها دار الفيصل الثقافية بالرياض عام 1422هـ/2002م.

وفي عام 1277هـ/1860م زار مكة المكرمة البارون مالتزن Baron H. von Maltzan، وكان في ريعان شبابه بصحبة حاج جزائري مدمن تعاطي الحشيش، واتفق مالتزن معه أن يستخدم جوازه للدخول إلى مكة المكرمة مقابل كمية من الحشيش. وهذا ما حدث، واستطاع مالتزن الوصول إلى مكة بجواز مرور مزيف، وبقي صاحب الجواز الأصلي في جدة لا يدري من أمره شيئًا، وكان يعتقد أنه أدى فريضة الحج.

سكن مالتزن في فندق صغير في جدة، وهي مدينة لم يرتح لها، وكانت ليلته في الفندق مزعجة، إذ جاور غرفة مليئة بالدراويش، الذين قضوا ليلتهم في صراخ. لم تترك مكة المكرمة لدى مالتزن أي انطباع إيجابي، وكان يشعر بعدم الراحة النفسية، وهو اعتبر الشعائر الإسلامية طقوسًا مملة، ذات طابع جنوني. وشبّه المسجد الحرام بقلعة الشياطين. وقد صاحب الحجيج في مُعظم مناسكهم ، وبعد الانصراف من عرفات لم يكمل مالتزن بقية النسك. لأنه سمع رجلين من الجزائر يتحدثان عنه، وعرفا أنه على دين النصرانية، لذا فضل مالتزن الهروب إلى جدة، حيث ينتظره صاحب الجواز، وأعاد له جوازه وعليه رسم الدخول إلى مكة المكرمة.

جاء إلى مكة المكرمة الطبيب البريطاني هيرمان بكنيل Herman Bicknell في عام 1279هـ/1862م، كان بكنيل يعمل جراحًا في مستشفى سانت بارثولوميو بلندن. وكان يؤمن أنه من صالح الحكومة البريطانية أن يلم الشعب البريطاني بالمعلومات الموثقة والواسعة عن الدين الإسلامي والمسلمين. ولن تأتي تلك المعرفة إلا عن طريق المشاركة في أكبر موسم يجمع المسلمين، وهو موسم الحج.

لهذا تطوع الدكتور بكنيل بالقيام بالرحلة إلى مكة المكرمة، وتنكر في صورة بريطاني مسلم، لذا لم يضطر لتغيير ملابسه. أنهى الدكتور بكنيل مناسك الحج، وأقام بمكة المكرمة، وقال إن المسجد الحرام يشبه القصر الملكي في باريس. ولم يذهب مع الحجاج الذين رافقهم إلى المدينة المنورة، بحجة أنه لا يستطيع مقاومة موجة الحر. وبعد عودته نشر مقالاً مطولاً عن الإسلام والمسلمين في جريدة التايمز عنوانه (الحج إلى مكة)، ووقعه باسمه الإسلامي المستعار: (الحاج محمد عبدالواحد) وتاريخ المقال هو 1862/8/25.

ويقول الدكتور العسكر، معظم الرحالة الغربيين الذين جابوا مناطق الجزيرة العربية وخاصة بلاد الحجاز عمدوا إلى إخفاء شخصياتهم الحقيقية، وتنكروا خلف أسماء عربية، وأظهروا مهنًا لا يعرفونها أصلاً، نستثني من أولئك نفرًا قليلاً، يأتي على رأسهم البريطاني تشارلز مونتاج داوتي Charles Montage Doughty وهو ليس فقط يعلن عن اسمه الحقيقي في معظم الأحيان، بل فوق هذا لم يأت للجزيرة لحساب دولة أو رئيس دولة، لقد كان داوتي من المغامرين وحسب، كان رجلاً متدينًا، وإن قلت مأخوذًا بقصص العهد القديم لدرجة الذوبان فيها، فلن أتجاوز الحقيقة.

جاء إلى الجزيرة العربية يريد تحقيق أهدافه غير المعلنة، وهي أهداف لا تخرج عن رغبته في تلمس القصص الواردة في العهد القديم، ومعرفتها على الطبيعة، يريد أن يعرف مثلاً الأماكن التي ذكرت في التوراة مثل مدائن صالح، ومعرفة السكان الذين يقطنون تلك الأماكن. لهذا انضم إلى قافلة الحجاج الشامية وتسمى باسم خليل، وهذا لا يعني إخفاءه اسمه الحقيقي، ولكنه من ضرورات السفر في البلاد العربية، وعندما وصلت القافلة إلى مدائن صالح تخلف داوتي، لأن قائد القافلة كان على علم بديانة داوتي وشخصيته الحقيقية، ولهذا رفض مواصلة داوتي السفر إلى المدينة المنورة ثم مكة المكرمة، وصل داوتي مدائن صالح نهاية شهر نوفمبر عام 1293هـ - 1876م، وبقي فيها مدة ينتظر عودة القافلة. فقام بدراسة المنطقة واستنساخ معظم الكتابات والنقوش.

لقد أخذ داوتي يجوب الجزيرة من شمالها مرورًا بوسطها ثم منتهيًا بغربها الشمالي، وكتابه الموسوم (الصحراء العربية Deserta Arabian من أكثر الكتب نفعًا، ومن أكثرها نقلاً للقصص والحكايات التي سمعها، والمعلومات التي أوردها عن شعب الجزيرة معلومات قيمة، وخاصة عن الدولة السعودية الثانية، وهو من أصدق الرحالة الذين وصفوا طبيعة العلاقة بين القبائل العربية في زمن الرحلة.

ولأن داوتي جيولوجي فقد أثر عليه هذا التخصص، لذا فانه لم يجد ما يقوله عن جغرافية الجزيرة، ولكنه كان مأخوذًا بطبيعة البداوة، ومحبًا للبدو، فوصفهم أدق ما يكون الوصف، في كل مناحي حياتهم العامة والشخصية، ربما لم يصادف أحد من التعاسة، وشظف العيش، وقساوة الرحلة كما صادفها داوتي، وهو يقول:«لقد عشت في الجزيرة العربية يوما سعيدا واحدًا فقط، أما بقية الأيام فكانت كلها سيئة بسبب تعصب الناس».

كانت رحلة الإنجليزي جون كين Gohn Fryer Keane رحلة ذات عبق روحي، ولا غرو في ذلك، فهو ابن قسيس، وتربى منذ شبابه لدى المسلمين، وقد ساعدته تسع سنوات قضاها عاملاً في البحرية الهندية على التعرف الكافي على الدين الإسلامي، ومن ثم جاءت الفرصة عندما أبحرت سفينته إلى الحجاز، فرافق أميرًا هنديًا وقضى عدة أسابيع في مكة المكرمة، التي وصلها عام 1294هـ/1877م.

أحب جو كين مكة المكرمة لدرجة حسب نفسه من أهلها، وقال: إن سحنته الأوروبية لم تثر اهتمام الناس أو فضولهم، ذلك أن الحجيج من كل صوب ولون، وشبّه جمع الناس المختلفين بشخصيات متحف مدام توسو، ووصف كين منظر طلاب المدرسة وهم يجلدون على أقدامهم، وقال: إن كل مجموعة تضم خمسة تلاميذ يتلقون هذا العقاب دفعة واحدة، ووقع له موقف طريف، هذا ملخصه: يقول كين: «إنه يحب مكة المكرمة، ومعجب بالإسلام، ولكن أهل مكة لا يستحقون الحب، فأغلبهم شحاذون، يطلبون البخشيش بسبب أو بغيره، وحدث أن مر يومًا وهو مرتدٍ الملابس العربية الفضفاضة، ويعتمر العمامة أن تقدم له صبي وصاح بدون سبب: «انظروا إلى هذا النصراني» فما كان من أحد المتسولين إلا أن تقدم له وطلب الإفصاح عن هويته، فأخذه كين ورماه أرضًا، ثم تكاثر الناس عليه، فاضطر أن يختطف طفلاً ويجعله واقيًا له من الحجارة التي ترمى عليه، وأسرع إلى مركز الشرطة، حيث شرح لهم قصته، وادعى الإسلام، فتلقى الحماية اللازمة.

لم تكن تلك الحادثة هي آخر معاناة كين، فقد حدث له في الطريق إلى المدينة المنورة قصة كادت تودي بحياته، لما رأى معالم المدينة المنورة تذكر مدينة القسطنطينية، لكنه مثل بيرتون، لم يعجبه طراز ولا ألوان المسجد النبوي، وقال عنهما: إنهما بهرجة لا تنم عن ذوق سليم، كتب كين مذكراته وذكرياته في كتاب يتسم بالذوق الأدبي الرفيع أحيانًا والوضيع أحيانًا أخرى.

ليس من الرحالة الغربيين الذين أقاموا بالحجاز أو بمكة من يدعي معرفتهما مثل ما يعرفهما الرحالة الهولندي كريستان هورخرونية Snouk Horgronje فقد قضى فيهما أكثر من سنة، عام 1303هـ - 1885م. هورخرونية من المتخصصين في اللغات السامية، وأطروحته للدكتوراه عن أصول الحج، ومن عجائب طرقه للحصول على المعلومات هي الارتباط بزيجة في البلد الذي يقيم فيه، لهذا تزوج في مكة المكرمة امرأة من جاوة، وعن طريقها استطاع معرفة معلومات عن المجتمع وعاداته، لا يمكن الوصول إلى معرفتها من دون تلك الزيجة، مثل وصف الزواج في مكة، ووصف العروس، بل أخذ صورة شمسية لها، وليس من المستبعد أن زواجه من سيدة جاوية هو لمعرفة المزيد عن الجالية الجاوية في الحجاز، ولمعرفة ارتباطهم بإندونيسيا التي خضعت للاستعمار الهولندي في ذلك الوقت، اهتم هورخرونية بدراسة العادات في الحجاز، خاصة ظاهرة الزار، ونظرًا للتنافس الغربي، فقد قام القنصل الفرنسي في جدة بتسريب سر وجوده في مكة المكرمة، لذا سارع هورخرونية إلى تركها.

ألف هورخرونية كتاب (صفحات من تاريخ مكة المكرمة) وهو كتاب عظيم الشأن، ويعد بحق مصدرًا لمجمل حالة مكة المكرمة في القرن الثالث عشر الهجري - القرن التاسع عشر الميلادي، خاصة ما يتعلق بالنواحي الإثنوغرافية، ولا نعدو الحقيقة عندما نقول: إنه لم يؤلَّف كتاب عن مكة المكرمة يصف ماهي عليه في القرن الثالث عشر الهجري مثل كتاب هورخرونية، ولا نظن أن أي باحث في تاريخ مكة المكرمة الحديث يستطيع أن يتجاوزه.

وتُعد زيارة المصور الفرنسي المحترف جرفي كورتلمون Gervais Courtellmont إلى مكة المكرمة أول زيارة من نوعها، شجعه عليها أصدقاؤه الجزائريون، لكي يتعرف أكثر على سلوك المسلمين وعاداتهم.

وصل كورتلمون مكة المكرمة عام 1321هـ - 1894م من الجزائر، أخذ صاحبنا عدة صور لمكة المكرمة والبيت الحرام بلغ عددها 34 صورة. ووصف مكة وسكانها، وقال: إن الإسلام دين عظيم وبسيط، ولكنه لا يملك الجرأة الكافية لاعتناقه، وقال: إنه سمع حكاية منتشرة بين السكان مفادها أن من يدفن في مكة المكرمة أو المدينة المنورة يذهب إلى الجنة.

أما الحاج عبدالله وليامسون Williamson فهو بحق مسلم، وحج حجته الأولى عام 1313هـ/ 1895م، وليامسون بريطاني مغامر هرب في مقتبل عمره إلى كاليفورنيا، ثم انضم إلى جماعة المتمردين في الفلبين، وبينما كان يعمل شرطيًا في عدن، اعتنق الإسلام، ذهب بعد ذلك إلى العراق حيث قضى معظم سنوات عمره، ووظف خبرته لصالح شركة النفط البريطانية، كتب رستانتون هوب قصة حياة وليامسون في كتاب عنوانه: (الهارب إلى الله)، وهي قصة من أجمل قصص المغامرة، وقد ظهر للكتاب ترجمة عربية اطلعتُ عليها.